عقد النار والرماد

لازك الأعرجي(*)

منذ أن وضعتُ قدميَّ على أرض المطار، أدركتُ ما وصلتُ إليه بيروت، حين أدارت لي وجهاً كالحاً يدفعه الألمُ اليائسُ والغضبُ العاجز، والقتْ عليَّ نظرةً من قاع بئرٍ يأسها، ثم عادتْ فألقتْ على وجهها البهيّ برقعَ الرمال والأتربة، وواصلتْ نومَ العاجزين.

وعلى طول الطريقِ من المطار إلى «تلّة الخيّاط»، كنت أبحثُ عن ملامح بيروت بين الأنقاض التي تتسربل بها. ولم يكن هناك سوى القليل من تلك الملامح

«جئتِ متأخرة. بيروت لم تعد تصلح للحياة. بيروت لم تعد لنا!». هكذا قالوا لي وأنا أعود بعد أربع سنوات، صارعتُ فيها مرضَ الموت بأسلحةٍ شتّى، من بينها الحلمُ بالعودة إلى بيروت، لأعيش فيها الزمنَ المتبقّي لي، والحياةَ التي طالما حلمت بها: حرّةً مستقلة، غيرَ مرتهنة لأيّ اضطرار، لا أخشى إلاّ نفسي، ولا أطيع إلاّ إرادتي، ولا أخجل من أخطائي، لا أطمع بما يذلّني ويُلصق جبيني بأذيالِ الآخرين طيراً مهاجراً، نبتةً بريّة.

وخطر لي أن أتخيّل، أنّنا - أنا وبيروت - توأمان، انتفضتْ عِلّةُ الموتِ في جسديهما، وأنهما بعد طول صراعٍ ومعاناة يلتقيان، ويتواصلان اجتثاثَ أدغال الشكّ من بقايا نفق الموت، أملاً في الوصول إلى عتبة الحياة من جديد. كلٌّ منّا مرآةٌ للأخرى، عكّازٌ لعجزها، كتفٌ لدموعها، صدرٌ لبَوْحِها. نتفقّد ما صنعته عِلّةُ الموت فينا، ونسير بقامتين مترنحتين تُسند إحدانا وَجَعَ الأخرى وتتكئ على بقايا عافيتها، نخوض ظلمةً مغبّرةً لا ندري لها نهاية، ندّعي أننا إنما نحدس ضوءاً في الأفق، خشيةَ أن نقف لحظةً فتبتلعنا اختلاجاتُ الوحش.

تلال من الرمل الأحمر تنبعُ في كل مكان. في الشوارع، على الأرصفة بين البنايات... كأنّ كفّاً خرافية تواصل دون كلل نبشَ الأرض، والتمثيلَ بأحشائها. رمالٌ من أجل الحدود الجديدة، والمتغيرة دائماً بين مناطق النفوذ. رمالٌ من أجل الحواجز. رمالٌ من أجل الطرق الخاصة. رمالٌ من أجل تعبئة المزيد من أكياس المتاريس. رمال للبيع، رمال منسية.

رمال.. رمال.. رمال، تواصل إدامة برقعِ الغبار على وجه بيروت الذي طالما كان مَليحاً رائقاً بهيّاً.

وتلك الأبواب والشبابيك والشرفات التي طالما وَشَتْ بانطلاق الحياة، تلجمها اليومَ قضبانٌ سميكة، ثُبّتتْ بفجاجة وقسوة، حتى لم يعد من منفذٍ لأي بيت إلاّ ولُجمَ، خوفاً من اللصوص والمقتحمين والمحتلّين.

ولكن ذلك كله ليس سوى وجهٍ واحدٍ من وجوه الاحتراس العديدة لحياة مترجرجة، داخل مدينة مترنّحة. وإلاّ فهل يحمي لجامُ الحديد من شظايا القنابل، أو من ضغط انفجار السيارات الملغومة، أو من زلزلة العبوات الناسفة؟

هكذا كانت بيروت يوم جئتها بعد غياب أربع سنوات، في الثامن عشر من أيار ١٩٨٢. قالوا لي: «إن الوضع كله يلعب في الوقت الضائع!» ولكنني لم أستطع أن أتخيّل، أو أنني لم أفكر أصلاً في تخيّل، كيف يمكن للوقت الضائع أن ينتهي، وكيف ستُحسم المباراة، وكيف ستُحسب الخسارة ويُعلَنُ الطرف الرابح. ولعلّنا جميعاً أجدْنا التهرّب من الأسئلة، وأسلمنا قيادنا... هل أقول للأقدار؟.. لعلكم ستضحكون. وماذا في ذلك؟ يحقّ لكم.

«بيروت لم تعد لنا»!

كم منّا كانت بيروت ستكون له، حتى لو لم يُلقِهِ قطارُ النار العاصف في محطّاتها؟ كم منّا كانت بيروت له مدينةً وعدٍ وميعاد؟ كم منّا كانت بيروت له مدينةَ الحظّ والنصيب؟ مدينةَ السعد وحسن الطالع؟

إنّ الكثيرين ممن عاشوا في لبنان - في بيروت خصوصاً - أساءوا تقدير الهبة الحقيقية لبيروت: الحرية. بل إن الكثيرين من هؤلاء كانوا يعيبون عليها حريتها. وعملوا - كجرذان مأرب -

(*) كاتبة عراقيّة، عاشت في بيروت بين عامي ١٩٧٢ و١٩٨٥. والصفحات التالية تشكّل مقاطع كبيرةً من «يوميّات» مطوّلة عنوانها «عقدُ النّار والرماد».

على قرض جرف تحرُّرها بانتقائهم الوجوهَ التي يريدونها دون غيرها من الأوجه التي لا تحصى، وجهٍ لجوهرة الحرية.

وهل هناك من وسيلة إلى فصلِ واحد من أوجه الجوهرة إلاّ بتدميرها كُلِّها؟!

■ «بيروت لم تعد لنا»!

أجيبي عن سؤال واحدٍ من أربعة:

١- شقة فاخرة: في رأس بيروت، المنارة، الجناح. سيارات كالسهام النافذة، مصاعد كالبروق، ممرّات كالهمسات، أسرّة كأغلفة الهدايا، حمّامات كعلب الحلوى، جيران كالأطياف، شوارع كالأحلام، شرفات: البحر إذا شئت، الجبل إذا رغبت. أقدام لا تمسّ الأرض. سفر، مطارات، تسهيلات، بال لا ينشغل بالتكاليف.

٢- سرير في غرفة في بيت من بيوت الطالبات. شقق أنيقة، خدمات مضمونة، تعليمات أقسام داخلية. حمّام مشترك، أنفاس غريبة على أشيائك، وبصمات الآخرين على مناشفك، قدحك، صحن طعامك. أصوات الآخرين تدفئ قلبك أحياناً وتُثقل عليه أخرى. الشوارع: يقظة تامة؛ تنفيض سجّاد، باعة خضار، تشفيط سيارات، زمامير، نداءات، كاسيتات.

٣- سكن مشترك في الفاكهاني، الطريق الجديدة، صبرا: صحبة منتقاة، حياة اجتماعية مفتوحة، إمكانات محدودة، تكاليف باهظة، مسؤوليات يومية، استقرار وأوقات غنية، برد ورطوبة، شحّة توقظ الحنين إلى بيوت في الذاكرة.

٤- غرفة في مخيّم: تفرّغ واندماج، صحبة دافئة، ضجيج اجتماعي، غربة روحية، عمل أكثر، حياة أقلّ، فقر مدقع لا مفرّ من اختياره، ولكن لا مجال لتقبّله والتعايش معه.

ومهما يكن الاختيار، أظلّ أنا، أنا. أينما سكنت، وكيفما تنقّلت، ومهما احتوى جيبي. فضاءُ حريتي يحيط بي كما تحيط الهالةُ بمصدر النور، فأسير، خفيفةً كالريشة، سريعةً كالسهم. ولو قال لي أحدٌ إنّ لي جناحين لَتَلَفَّتُّ أتوقّعهما. ولو قال لي أحدٌ إنني مصنوعة من أثير لجسست نفسي لعلني أجدني كذلك.

البسْ بنطلون جينز عتيقاً وقميصاً فضفاضاً وحذاءً رياضيّاً، فأكون أنا. ارتدي فستاناً أنيقاً رقيقاً، فأكون أنا. تايوراً صارماً، بدلةً رجالية، قماشاً خشناً أو ذائباً من فرط رقّته، تنّورةً طويلةً حتى الكاحلين، أو قصيرة فوق الركبتين، معطفاً مطريّاً مستعمَلاً. أو سترةً فرائية باذخة، جورباً حريريّاً، أو صوفيّاً أو رجّاليّاً، كنزةً عتيقة، أو رقيقة مثل ريش الزغاليل. امشّط شعري، لا امشّطه، أتزيّن أو لا أتطلع أياماً في مرآة. وأظلّ أنا، أنا، أنا.

وفي جميع الأحوال لا يحتلُّ أيُّ شيءٍ من كل شيءٍ ذرّةً من اهتمامي. ففي بيروت بإمكان المرء أن يكون أيَّ شيء، أيَّ شخص، أيَّ لون، أيَّ جنس، أيَّ اتجاه، أيَّ مستوى ثقافي أو اجتماعي، فكل شيء متاح، كلّ شيء ممكن، كل شيء مقبول. وفي بيروت فقط يمكن للمرء أن يكون ذاته، حقيقتَه، أو ما يريد.

مقاهٍ؟ اخترْ وقرّرْ على الفور: على الرصيف، خلفَ زجاجٍ معتم، في المقصورات الخاصة، تحتَ الأرض، في الطوابق العليا. أين تريد، كيف تشاء، فأنت، أنت، يموجُ العالمُ من حولك، كلٌّ في شأنه.

وقد يحلو لك أن تتأمل الآخرين أو تراقبهم - فافعل - فهذان اللذان يتهامسان إلى يسارك قد يكونان مُهرِّبَيْن خطيرَيْن، وقد تلتقي عيناك بعيونهما فيقول لك أحدُهما: «هاي» أو «بونجور» أو «أهلين» ولكنك تبقى أنت فلا تصبح مهرِّباً مثله. وذاك الذي يقرأ الصحيفة في عمق المقهى قد يكون جاسوساً خطيراً. وذاك الذي يضحك بصخب قد يكون قوّاداً، وتلك التي تقف على الرصيف قد تكون عاهرة، أو جاسوسة، أو مهرّبة حشيش، أو قدّيسة. وذاك قد يكون مناضلاً أو قاتلاً أو فارّاً من وجه العدالة، أو مفكّراً، أو مضطهَداً، أو مخرّب ذمم. وأنت وسط هؤلاء جميعاً، أينما تكون ويكونون، تبقى أنت، أنت. تفعل ما تريد، وتفكر بما تريد، وتؤمن بما تشاء، وبيروت تمدّ كفّيها العامرين، فاختر ما يجعلك أنتَ نفسَك.

مطاعم؟.. اخترْ من بين مئات الأسماء وعشرات المستويات: في البلد، في الجبل، على البحر، في أي شارع، أيّ حيّ، أي زاروب، تحت أي عمارة. احسبْ ما في جيبك وستجد أينما التفتَّ ما يلائمك ولا يمسّ كرامتك.

سينما؟.. اخترْ ما شئت، فكلُّ دُور السينما في بيروت تعرض أفلامَ العالم، في الغالب قبل أن تُعرضَ في أيِّ مكانٍ من العالم. لا ممنوعات سياسية أو اجتماعية، أو فنية، وأقلّ ما يمكن من الممنوعات الأخلاقية. أفلام عربية في «البلد»، هندية في «بيكال» مع خدمات بَيْع المناديل في اللحظات الحاسمة قبل انفجار الدموع، تاريخية في «إلدورادو»، مغامرات في «الستراند»، كوميديا في «الكوليزيه»، منتقاة في «كليمنصو»، بكائيات الحب العنيف في «الكونكورد».

لا أحد وصيٌّ على ذوقك وأخلاقك، لا أحد يفكر في وضعك في قالب تقرره نزعاتُ التسلط المريضة، أنت سيّد اللعبة. أنت مطلوب. ولا شيء يتمّ دون إقبالك.

اخترْ كتابك: هل يُكتب شيء في

الدنيا، بأيّة لغة، ولا تصدر له ترجمةٌ في بيروت، وبأسرع من صدور طبعته الأصلية؟ اقرأ واعرفْ كتّابَ العالم: يوميّات، سِيَر، بواكير، خواتيم. اقرأ وتعرّفْ. كم من الأسماء كان سيطويها النسيان لو لم تقفز بها بيروتُ السبعينات إلى الواجهة. اقرأ: سياسة اجتماع، إلحاد، فلسفة، وثائق، اعترافات، فكر، قصة، شعر، رواية، جدل، عراك، جنس، حب، جاسوسية، أسرار.

لا أسرار في بيروت. أنت في بيروت لا تضيع ولا تُخدع.

اقرأ: مجلات، صحفاً، طوفاناً منها، ادخلْ أيةَ مكتبة واغرقْ هناك في ذلك الفيض العذب من الدوريات، كلُّ ما تفكر فيه ويخطر لك على بال، كل اللغات، كل التخصّصات، إن شئتَ تصفّحْ وغادرْ، وإن شئت اشترِ بنصف الثمن أعداداً قديمة، أو خذْ أعداداً سوف تصدر بعد أيام. لا شيء في الكون مخبّأٌ عنك. لا أحد يغشّك، لا أحد يعطيك حقائقَ ملويّةَ الأعناق أو ممسوخة الملامح، الجميع يتسابقون من أجل أن يكونوا أكثرَ صراحةً وكشفاً ووضوحاً. فالحقيقة هي بضاعةُ بيروت. وهي مطروحة في السوق. ومن يغشّ في بضاعته تكسدْ له وتَبُرْ. وأنتَ سيّد السوق. أنت سيّد الحقيقة. كائنٌ مستقلٌّ مكتفٍ بذاته.

***

انظرْ، ما الذي يعنيه ذلك كلّه بالنسبة لامرأة؟

«امرأة حرّة»!

ما أشدَّ ما توحي هاتان الكلمتان بأسوإ الافتراضات. امرأةٌ حرة!..

أنا أعرفها!

امرأة تمتلك الحانةَ الخاصة بها، فضاءَها الذي لا يقتحمه أحد، حقَّها في أن لا تُرى ولا تُلمس ولا تُلاحق رغماً عنها، تمتلك حياتَها وزمنَها ومصيرَها، وتكون لنفسها أولاً وأخيراً.

امرأة تمتلك الحقَّ في أن لا تكون طريدةً في غابة.

ليس من مكان تكون المرأةُ فيه حرّة مستقلةً مسؤولةً مثل بيروت. ببساطة لأنَّ قانونَ سوق الحقيقة هو نفسه قانونُ الحياة الاجتماعية؛ فحيث كل شيء معروض على حقيقته، فلا ضرورة لمطاردة حقائق مفترضة وراء أقنعة متخيلة.

اذهبْ إلى السينما وحيدةً لأن ذلك يروقني. ولو شئت لاصطحبتُ صديقاً أو صديقة، فلا أصبح في ظلمة القاعة طريدةً تختبرني الأصابعُ والأكواعُ والأنفاسُ.

لا أسرار في بيروت. أنت في بيروت لا تضيع ولا تخدع.

أسير في الشارع صبحاً أو مساءً، عصراً أو ليلاً فلا تطاردني الشهوات؛ ذلك أنَّ الطرائد يُعلنّ عن أنفسهن، وما شأن المطاردين باللاطرائد؟

أؤمن، أعتقد، أرفض، أختار. أتجمّل، «أتهركل». أسهر الليل في قراءة كتاب أو برفقة أصدقاء، في تضميد جرحى، أو على حافة مخيّم، أكون أنثى، أو أكون مخلوقاً لا جنس له. في بيروت فقط، أستطيع ذلك.

***

غير أن ذلك كان، كنّا نجلس فيه ضُحىً على الشرفات حول القهوة المعطّرة بالهال، تصخب حولَنا الأغنياتُ الرائجة، تتصاعد من الشوارع الضاجّة بالزمامير – ونداءات الباعة. والشرفات من حولنا تمتلئ بالجارات المنعّمات بالفراغ. يشربنَ القهوةَ ويدخّنَ «الأراجيلَ»، طريّاتٍ كأنّهن العناقيدُ بثيابهنّ المهفهفة، وأخفافهنّ التي تشبه قطعَ الحلوى، يتراشقن الكلامَ عبر الشوارع ويتسوّقْنَ بالسلال المدلاّةِ بالحبال ويتشمّمْنَ روائحَ طبيخهنّ وهو ينضج دون عجلة في انتظار عودة الرجال.

غير أننا لم نكن نجلس «الصبحيّات» على الشرفات. كنّا زوابعَ صغيرةً، ندوّم دون توقف. نسابق الزمنَ، لا ندري من أجل ماذا. فما كنّا نسابق الزمن من أجله كان دائماً تفصيلياً وعارضاً. وأمّا «الستراتيجي» فقد ظلّ دائماً غائماً ومراوغاً... ولا عجب: فقد كان مصنوعاً من مادة الأحلام! كان ذلك منذ أمدٍ بعيد.. طيفاً في تهويمة.

ثم جاء المسخُ العجيب، فأعدّ له في الفضاء – أعني في اللامكان – غرفة عمليات هي في الواقع غرفةُ العاب، وفي لحظة امتصّ لبنانَ من الواقع، وأدخله في منظومة لعبته الجهنّمية. آلة فريدة من نوعها، يدير من خلالها كأس الموت والدمار بالعدل، ويتفنّن في تنويع أوجه الهلاك فلا يدخل الملل بيت الحرب اللبنانية. ولعلّه مع ذلك مسخٌ جميل، من يدري؟ ولكنّه في كل الأحوال ذو قلب يرفّ بنعومةِ رائحةِ الدماء الطازجة والجثثِ المتعفنة.

ورحنا نتقافز ونندرج، نُفرَز ويعادُ ترتيبنا، ثم نُبرمَجُ وندخل جولة جديدة، يخرج بعضنا منها، ولا يخرج البعضُ الآخر. ثم نُصفّى، ونُعجَنُ من جديد، ونُلفّ في ديسك لعبةٍ جديدة. نُركن في

أدراج أو نُستقطعُ ويُؤلَّفُ من قصاصاتنا ابتكاراتٌ لألعابٍ أكثرَ إثارةً. ونحن - في كل ذلك- غاضبون، ذاهلون، مصمِّمون، منهارون، مستاؤون، راضون، نخطّط، نحلم، نرفض، نقبل، نصدّق، نشكّ، ننسحب دائماً..

في الواقع: مضبوعون.

وجعلتْ بيروتُ تصغر. ثم تصغر. ثم صارت تضيق، ثم بدأت تختنق.

وتلك المدينةُ - المرأة. الناعمة، الدافئة، المقبلة، الأنيقة، الجميلة، الغنية، المترفة، المُغْوية، سرعان ما أُنهكتْ وامتُصَّتْ وناءتْ تحت ثقل البشاعة والغرائز السوداء المنفلتة. ضاق صدرها وتكدّرتْ نظراتُها، وساء مزاجها. تفطّرت راحتاها وتحوّل حضنها الدافئ الناعم إلى فخٍّ شوكي.

***

كنا كلما ذهب القتالُ إلى مدىً، نخدع أنفسنا بأنّه لن يذهب أبعدَ من ذلك، ويواصل الناسُ الرحيلَ من منطقة لم تعد آمنة، إلى منطقة أكثرَ أمناً، إلى منطقة «قد» تكون آمنة، ثم يصبح الرحيلُ حركةً غريزيةً لا تُقنع بالنجاة ولا تضمن السلامة. وكان كلما أدغل الناسُ في التراجع، الوراء، زاد الجذام إلى الأمام..

مستعمراتٌ للجذام على طول «الخطّ الأخضر». صفوفٌ من البنايات قد أكل البرصُ وجوهَها - وانبتتِ الوحشةُ على جدرانها الطحالبَ والأدغال، كأن لم تُدفئها أنفاسٌ أو لم يعمّرها وجودٌ بشريٌّ. وإذا أُتيح لك أن تكون بمنجىً، فإنك سترصد انخطافَ الإطلاقات من أوكار القنّاصين الذين يعملون بتسعيرة مفتوحةٍ على إمكانات التضخّم وسعر الدولار: مئة وخمسون ليرة على الراس القتيل. ومئة ليرة على الراس الجريح، عند افتتاح بواكير سوق الرؤوس في عرب السنتين.

وفيما بعد، استشرى الجذامُ، وتعدّدت وسائلُ عداواه، واستيطانُه الجسدَ البيروتيَّ المُنعَّمَ. فمنذ حرب السنتين وحتى نهاية حرب المخيّمات تكادُ البناياتُ التي سلِمَتْ من الجذام تُعَدُّ على الأصابع.

***

في يوم من أيام عام ١٩٨٤، كنت مارّةً من شارع جامعة بيروت العربية، مسرعةً أتحاشى توكيد النظر إلى أي شيء قد يزيح «حجر سنمّار» من تحت بناء الذاكرة الموقوفة. اختطفتْ عيني نظراً قسرياً إلى فراغ ناشز، قطعة أرض خلاء بين بنايتين متضعضعتين مهجورتيْن تنظران إلى الفضاء بمحاجر خاوية.

توقفتُ وواجهتُ ذلك الخلاءَ المريب، هنا كانت عمارة «الملك للّه». أذكر اسمَها الآن لأننا كنا نمزح فنقول: «المُلْكُ للّه والعوائدُ للمالكين». في هذه البناية أكثرُ من بيتٍ للطالبات في أكثر من طابق. في حرب السنتين سكنتُ في أحدها، في الطابق السابع، وكان البيتُ خالياً، فيما بعد أصبحنا أربعاً. كان الناس يهجرون الطوابق العليا، ولم يكن لنا بدٌّ من سكناها، وكنّا نمضي الليالي في نوم ممرور، تقطعه بلا توقُّفٍ شهقاتُ الصواريخ وهي تعبر فوق رؤوسنا لتمضي فتنهشَ الأسواقَ التجارية. كانوا يقولون لنا: إنّ مالكي الأسواق يدفعون للمسلّحين كي يدكّوا لهم أملاكهم، فقد يستطيعون، فيما بعد استعادتَها من مستأجريها، أو بيعَها لمن سوف يعمّرها حسب ما ترسو عليه الصفقاتُ السياسية فيما بعد.

ورحتُ أحدّقُ في فضاء ذلك الفراغ. أحاول أن أخمّن أين يمكن أن يقع الطابقُ السابع فيه، والغرفةُ التي كنتُ أسكنها، والأحلامُ التي كانت تزين لي آنذاك، أنّ الحياة لا بدّ أن تصبح أحسن.. أو أنها قد تصبح أحسن؟

وهذه البناية.. لعلّ اسمَها «الوفاء» سكنتُ فيها فترةً طويلةً. ولم تكن هناك حروب، سوى حروب آخرِ الأغنيات تبثّها المقاهي والمطاعمُ وشققُ الطلبة ومحلاتُ الأزياء والبقالياتُ والعصيرُ والفروجُ والأحذية... وسوى حروب المواسم وغزو عرباتِ البشائر، المصفّحة بالزينة، والمكلّلة بالنداءاتِ المنغّمة الطُّرُوب: خضار، لوز، عنّاب، زعرور، فستق، ذُرة، تين شوكي...

وسوى حروب آخر موديلات السيارات وهي تتبارز في «التشفيط» والزينة التي تجعل السيارة مملكةً متجولةً بعلَمٍ ونشيد وطني...

وسوى حروب آخر موديلات الملابس على الأجساد النحيلة للنساء والرجال على حدّ سواء: بنطلونات ضيّقة، بلوزات قصيرة، قمصان فاقعة، أحذية ضخمة الكعوب، وشعور منكوشة...

وسوى حروب الحبّ العابر لفتيان وفتيات، فرّوا من بيوت الأُسرة وارتموْا في فسحة الحرية، بأجنحةٍ كسيرة، يسكرون من خمر المواعيد السريعة المتعجلة، ويبكون لوعةً على أنغام الأغنيات الرائجة. مستمتعين بعذاب يظنُّونه، أو يحلو لهم أن يظنوا، أنّه أشدُّ عذابٍ سوف يُمرمِرُ لهم حياتهم...

وسوى حروب الاستراتيجيات السياسية والتنظيمية، وحروب الاختلافات الجوهرية العظمى حول حقيقة مصرع تروتسكي، وما إذا كان يحقّ لنا أن نطلق اسم «الماويّة» على خلاف ماو مع السوفييت، وما إذا كانت فيتنام ستصبح ماويةً أو تحريفيةً بعد التحرير، وما إذا كان الحزبُ البرجوازيُّ الصغير يمكن أن يتحوّل إلى حزب ماركسي، وما إذا كان الأصحّ لحركة التحرّر أن «تتحول»، أو أن

يؤسّسَ داخلها حزبٌ تلتفّ حوله.

وكنتَ ما إن تلتقي بصديق أو رفيق أو زميل قديم حتى يدعوك باحتفائية رصينة إلى فنجان قهوة في المقهى المجاور (كان هناك مقهى مجاور للقاء كل اثنين في بيروت). وقبل أن يصل فنجانُ القهوة يكون حماسُ صديقك قد غلب صبرَه، فيصارحك بأن لديه ما يودُّ اطلاعك عليه، وأنّه يريد رأيك «بصراحة!!»؛ فالمسألة مصيرية، ولم يعد هناك كبيرُ مجال لبعثرة الوقت والجهود. ويحسم: «الوقت يداهمنا!» فتوقن أنّك ستشرب قهوتك على شَرَف استراتيجيةٍ سياسية وتنظيمية جديدة. ولكنك لا تستطيع أن تنجو - مهما حاولت - من تلك النظرات ذات المغزى الذي «لا يَخْفى على اللبيب»، يختلسها إليكَ رفيقُك!.. إنّه لا يخفي هَدَفَه: «هل تأتي معنا؟»، فتبدأ بحرق السجائر وأنت محشورٌ في زاوية المسؤولية العظمى عن مصير الإنسانية في الربع الأخير من القرن العشرين!.

ولكنْ، مهما كان مضمونُ تلك الاستراتيجية، ومهما كانت درجةُ اقتراب قناعتيكما، فإذا كان رفيقك ماويّاً، ولم تكن فإنكما لن تتّفقا، وقد تفترقان على «تناقضٍ» يصعب حلُّه!

اليوم.. يختفي ذلك كلُّه، كأنما شالةُ طَلْسَمٍ، أو اقتلعه ماردٌ وطار به قبل أن تستوعب أنه كان وجوداً، لا وهماً مما تهجس به النفوس، قبل أن تطبق عليها زهرةُ اليأس الجبّارة فتُحيلها إلى رحيق مرٍّ من أجل الأزمان الآتية.

***

ما زلت أذكر ذلك اليوم..

ليس بمقدور أحد قد عاشه أن ينساه..

نزلتُ لأشتري الصحف. لعله كان يوم أحد. كانت صحف يوم الأحد البيروتية ولائمَ دسمة. وإذا شاء المرء أن يقرأ أهمَّ ما تقدّمه الصحف فإنّه سيمضي نهارَ الأحد بكامله مسترخياً في شرفته يدخّن ويشرب القهوة.. ومن يعبأ بالغداء؟. ففي بيروت ما إنْ تمدّ يدك حتى تتناول ما تشتهي بقروش.

اشتريتُ الصحف من مكتبةٍ مقابل الملعب البلدي، واستدرتُ لأعود إلى البيت الذي لا يبعد أكثرَ من شارع باتجاه الفاكهاني، على طول السياج الجانبي لسجن الرمل. فإذا بقرع طبول ونفير أبواقٍ ووقع مسيرةٍ عسكرية، لعلّها كانت آتية من اتجاه محطّة الدنا أو الطريق الجديدة. تجمّع الناسُ على الأرصفة، فعرفنا مناسبةَ المسيرة، وواكبناها حتى وصلت مدخلَ جامعة بيروت العربية. ولا أدري ما إذا كانت قد واصلت حتى جسر الكولا، أو أنها نزلت طريق «أبو شاكر». فلم يكن مرورُ مسيرة عسكرية بالأمر اللافت. وقد كانت - على أية حال- مسيرةً صغيرة.

ما زلت أذكر حتى هذه اللحظة، المربّعَ الذي احتلّته التظاهرة، والذي بدا مثلَ لوحةٍ خالية اللون لوجوهٍ شابةٍ ومرصوفة، تظلّلها درجاتٌ من اسمرار البشرة هي بين الحنطي والخاكي- ولا أدري لماذا ما زلت أذكر تلك المجموعة من الشباب كلما أردت أن أتخيّل مقاتلين، ولماذا أتخيّل دائماً أنّهم - لا بدّ - أن يكونوا قد دُفنوا جميعاً في مقابر الشهداء.. وأنّهم، لو قُدّر لهم أن يُدفنوا في قبور متجاورة، فإنّ صورهم المثبّتة عليها سوف ترسم اللوحة نفسها التي احتلّت ذلك المربّعَ القدريّ من شارع جامعة بيروت العربية، في صباح الخامس عشر من نيسان عام ١٩٧٥.

***

ولكن.. ألم يكن هناك ما قبل ذلك؟

أيار ١٩٧٣

نيسان ١٩٧٣

تموز ١٩٧٢..

إذن، متى كانت بيروت في خاطري حضناً دافئاً وصدراً حنوناً؟..

لعلها كانت كذلك، رغم ذلك.

لم يكن غريباً أن يزدحم مدخلُ المجلّة، وإنْ كان اليومُ يومَ سبت، وهو يوم ميّت. فيوم صدور العدد ونهاية الأسبوع، كانت المجلّة مركزاً إعلامياً رئيسياً للمقاومة، يديره نجمٌ لامع من نجوم الأدب والإعلام والسياسةً في واحد من أكثر تنظيمات المقاومة إثارةً للجدل.

قبل أيام فقط، كان مكتبُ رئيس التحرير يزدحم بعشراتِ الصحفيين، وأظنُّ أنّ الجدل كان ما يزال ساخناً حول عملية مطار اللدّ. وكان غسان كنفاني يتصدّر ذلك المكتب، مكتَبه، وخلفه يصطفّ عمالقةُ ذلك الزمان: ماركس، أنجلز، لينين، ماو، جيفارا، هوشي منه، كاسترو، في بوسترات ضخمة، وأخرى أصغر حجماً لتروتسكي، كيم إيل سونغ، اللندي، أنجيلا ديفز، وعشرات البوسترات الأخّاذة من كل مكان في العالم تُرْفَعُ فيه بندقية... وملصق ذلك الكفّ الخشنة القابضة على ماسورة البندقية، والوجهِ الغائم الملثّم في قعر الصورة كما لو كان يقول: «ليس لديَّ غير هذه. وخلفَ هذه البندقية لا تبحثوا عن وضوح».

كان غسان، الذي يتكلّم الإنجليزيةَ بطلاقة، يُصرُّ على نطق بعض الكلمات بلفظها العربيّ: وطن، فدائيين، فلسطين. وكان الإعلاميون الأجانب يضمّنون أسئلتهم وأحاديثهم النطقَ العربي لهذه الكلمات، ربما مجاملةً له، أو انبهاراً بالتغيير... فكان يبدو كمعلّم يلقّن تلاميذه النطقَ السليم.

كان غسان كنفاني أهمَّ شخصية بعد الحكيم [المقصود: د جورج حبش- **الآداب**]، تتوازن عندها الجبهةُ الشعبية

لتصبح تنظيماً مقاتلاً، لكنه منتمٍ بالقدر نفسه إلى حضارة العصر. أعني أن يكون التنظيمُ مقاتلاً، لا من أجل قضية وطن مستلب فحسب، بل من أجل وطن يريد الانتماء إلى حضارة العصر أيضاً. وأظنه – لو كان قد ظلّ حيّاً – لأصبح منذ ذلك الوقت وصاعداً، نقطةَ جذب لتيار كهذا داخل «الجبهة». ولا أشكّ أنّ الذين قتلوه، كانوا من بُعْدِ النظر ودقّةِ التشخيص بحيث إنهم عجّلوا في التخلّص منه.

سار موكب التشييع. بحرٌ من البشر: «لقد نالوا منّا». وكان أول نصرٍ صاعق لهم. وكنا كمن انفجر به لغمٌ ولم يدرك بعدُ أنّه ميّت: نقبض على أكفّ بعضنا، ونزرع نظراتنا المصممة في الفراغ. لقد تعاهدنا على أن لا نبكي. لكن، ما كان يرعبني طوال الوقت الذي استغرقه التشييعُ هو تخيّل ذلك الذي زرع القنبلة في سيارة غسان وهو يراقبنا من على شرفة من الشرفات، أو رصيف من الأرصفة. وكنت أرتعد من فكرة أن يكون سائراً معنا، قابضاً على كفّ أحدنا، مبتهجاً بتلك الفسحة الهائلة من الحرية...

غير أننا جميعاً تناثرنا دموعاً، والجسد المتفجّرُ/الملموم من على الأسطح والأرصفة يلتئم أخيراً في حفرة رمليةٍ في مقبرة الشهداء.. وكانت حينذاك أرضاً شاسعة..

خالية..

تنتظر...

وإلى جانب كل أولئك الذي يتّكئون منذ سنوات على جدار مكتب رئيس التحرير، اتكأ أخيراً غسان كنفاني في صورة يبدو فيها أشبه بوَلَدٍ حائر بين ادّعاءِ العبث والتسليم بأنّه ليس كذلك.

وعلى الجدار المقابل له تماماً، كان فدائيو «ابراهيم زاير» الثلاثة يواصلون البحلقة بعيون مشدوهة، ونظرات زائغة لا تكاد تصدّق ما تقع عليه.

***

هذا شارع كنّا قد تركناه إلى منطقة بدتْ أكثر أماناً.. عبر «كورنيش» المزرعة ليس إلاّ، وكان قد ضجّ أصلاً بمن ظنّوه أكثر أماناً من سكان المناطق الأكثر تماسّاً مع خطّ المواجهة.

كان الليل هادئاً.. أيّ يوم من أيام الاجتياح كان؟.. نُقِرّ على الباب نَقْرٌ محاذِرٌ استقرّ في الحلم. ثم فُتح الباب، وكان لغطٌ هامس بين رعب وحماس، تفتّت ما بَين الحلم واليقظة: «إنزال إسرائيلي في خلده!». «خلده؟!» هتف صوت. وبُحّت الكلمة، وانتشرتْ كالفحيح، تداعى ثلثاه إلى بئر النوم، ثم عاد فاستوى همساً في الصحو: «تنوير وتمشيط. الناس ينزحون، كلهم، يعبرون كورنيش المزرعة».

دُهشتُ كيف يتمّ ذلك وسط هذا الهدوء الليّن.. إلاّ أن يكون حلماً أو فيلماً صامتاً.

وكانت كلما أُعلنت منطقةٌ ما آمنةً، يتصرّف الناس فيها كأنها كذلك: فهم يفضّلون إلقاءَ عبء التشخيص الذي لا يطيقون حمله. وقد كان الناس في بيروت دائماً كذلك: ما إنْ يُعلن وقفُ إطلاق نار، حتى يخرج الناس إلى الشوارع والشواطئ، وما إنْ يُعلن عن توقيع اتفاقِ مصالحةٍ حتى يعمدوا إلى إصلاح الأضرار التي لحقت بممتلكاتهم والتخطيط لمستقبلٍ ممسوحةٍ منه مسحاً، أخطارُ الحاضر والماضي.

وهكذا، كانت الشوارعُ في الشطر الآخر من كورنيش المزرعة تموج بالبشر المنهمكين في تدبير شؤون الحياة، في حين خلت تلك المتّصلة بالفاكهاني وصبرا والطريق الجديدة، كما لو أن الشطرين ينتميان إلى عالمين: سحر وحقيقة.

كان الوقت عصراً، ولعلّه كان غروباً. استدارت السيّارة من مفرق الكولا باتجاه جامعة بيروت العربية، فبدا الشارعُ واسعاً وعميقاً وموشّحاً بظلال قاتمة. لم يكن هناك كائن حيّ واحد يبثّ فيه حرارةَ الحياة. أسرعنا بدافع غريزي، كما لو أننا أدركنا فجأة حدودَ المصيدة. ومن فرط عجلتنا لم نتخذ طريق أبو شاكر– تحت، فاندفعنا باتجاه الملعب البلدي. غير أنّ إحساسنا بالخطر كان من الشدّة بحيث لم نخطئ مرّةً أخرى، فملنا باتجاه أبو شاكر– فوق. ومن خلف جدار واطئ أطلّ رأسٌ ولوّحتْ ذراع، فظنّنا صاحبها يأمرنا بالوقوف. كبحنا السيارة بصعوبة – فأشار إلينا بالمضيّ وصاح وراءنا: «ما الذي تفعلونه هنا، هل أنتم مجانين؟» فقُدْنا بسرعة، كما لو أن أشباحاً تطاردنا. ولم نكدْ نصل إلى مفرق المزرعة حتى انقضّت الطائرات الإسرائيلية. فررنا من السيارة وعبرنا الشارع باتجاه سوق تُطلّ واجهتها على الكورنيش، ولم نجد سوى ظلّةٍ صغيرة: زاويةٍ بين واجهتيْ محلٍّ مغلقٍ ببوابة مشبّكة خلف جدار زجاجي.

انقضّت إحدى طائرات السرب حتى أحسسنا بسخونة الريح التي تجرفها أمامها فأيقنّا أننا هالكون. جعلنا نتقلّص على أنفسنا، حتى أوشك الواحد منّا أن يدخل في ضلوعه. ووجدتُ في الفراغ ما جعلني أتخيّل، كيف يمكن للبوابة الحديدية أن تنغرز في لحومنا، وكيف للألواح الزجاجية أن تفتّتنا، والضغط أن يمتصّنا إلى داخل المحلّ أو يقذفنا بعيداً.

فزّت الأرضُ ودمدم الزجاجُ، وتقارب قوسا الموت من حولنا، غير أنّ الأدخنة علتْ من خلف البناية المجاورة، دقّت الأجراس سيارات الحريق والدفاع المدني..

كان الهدف على بُعد زاروبين..

لم يكن من حصتنا.

***

فتحتُ مجلة **فلسطين الثورة** في يوم من أيام أواخر الصيف ١٩٨٨ فانخطف قلبي، وجفّ حلقي: صورة مطوية على هيئة كراس «٦٥×٢٥» بالأبيض والأسود مكتوب عليها: «شاتيلا ١٩٨٨/٦/١»، بانوراما الموت.

لم افتح الصورة - الكرّاس، ولم أتمعن فيها، دسستها في ملفّ، وأثقلت عليه، بعد شهور سوف تكتمل خمسُ سنوات، منذ ذلك الحين وأنا أوْجل وجع قلبي الذي قدّرت أنني لن أحتمله، وأنا أتطلع إلى جثة ذلك المكان الحبيب إلى نفسي.

خمسة آلاف عام من عبث الطبيعة وقسوتها، وغياب البشر ودفئهم، لم تفعل بالمدن الدوارس ما فعله عقدٌ واحد من الكراهية. عدسة مكثّفة صبّت نار الخراب على هذا المكان الهشّ، المرتجل، الموعود بالعودة!.

أُحدّق وأحاول أن أخمّن، أن أحزر الطرقات والزواريب والاتجاهات. عبث. تلال من التراب والأنقاض وألواح الزينكو، وحيث توجد سقوف فهي ذائبة متهافتة كصفحات من ورق مبلل، أعمدة نحيلة بائسة هي الآن مقوّضة، إلى جانب جدران مشرشرة الحوافي، أو مكوّمة أو متزحلقة.

أدري أن الذين بنوْا هذه البيوت ما كانوا يأملون لها حصانةً ومنعة وسلامة. وأدري أن كل باب في هذا المخيّم إنما كان يُغلق على وهم خادع، مكشوف مع ذلك، بالأمان. وأنّ كل يدٍ حملت السلاح إنما كانت تريد أن تسدل برقعاً إضافياً على وجه ذلك الوهم، فيبدو في يوم من الأيام وكأنّه حقيقة.

***

- «ربما لأنك امرأة يا رفيقة» - يقولون.

- وهل يتحتّم أن يحبّ الرجالُ السلاحَ لأنهم رجال؟» أسأل.

- «لا أدري» يقول جيم «فيما يتعلق بي فأنا أحبّه».

- «تُحبّهُ؟ أم أنه يُشعرك بالأهمية، مثلاً؟»

- «أو بالخطورة، مثلاً!» يكمل ألف.

- «... بالنشوة، مثلاً!».

أوضح أنا.

- «النشوة؟!» يتبادلون نظرات ملتمعة ويضحكون بحرج..

- «تعنين الرجولة؟» يتساءل تاء بصوت مرتعش.

- «ليس ذلك تحديداً» أجيبُ متهربةً.

- «ما قبل الرجولة؟» يستأنف تاء مصمماً على الإيقاع بي.

- «ما هذا الهراء.. هل هناك ما قبل الرجولة وما بعدها؟.. حدِّدْ أكثر.. الفحولة، ربما»؟ يضيف جيم بخبث.

- «لماذا لا تقول الإثارة؟» يستنكر ألف.

- «إذن، لعلك تعنين الامتلاءَ بالأهمية والخطورة؟» يُلخّص تاء.

- «ممكن.. إلى حدٍّ ما» أقول دون اقتناع.

- «فلربما تعنين أنّ الرجل يكون أفضلَ ما يمكن رجولةً وهو ممتلئ بالأهمية والخطورة؟» يحاورني تاء. لقد حزر منذ البداية.

- «لماذا لا تخبرني أنت بذلك؟» أسأل.

- «صعب يا رفيقة» يضحك مدارياً خجلاً وحرجاً.

- و«لماذا؟» أسأل..

- «ربما لأنك امرأة يا رفيقة» يجيبون..

نغذّي نيرانَ الحراسة بأخشاب صناديق الخضر والفاكهة، فيروح الدخانُ يبكينا فنبدو مثل عَبَدَةِ نار يَنْشدون الغفران. نجلس على مقاعد مرتجلة. يهزُّنا البرد ويوقظنا الحذرُ المبالغ فيه. تشوي النار وجوهَنا وصدورنا، يلسع حديدُ البنادق المحمّى أصابعنا، ويعصف بردُ كانون بظهورنا وجنوبنا ورؤوسنا فنروح نرتعد بين قوسي البرد والنار، على حدود المخيّم الغارق في الظلمة وحافة الطريق الدولي الغارق في النور، والمزيّن بقلادة دائمة من وميض أضواء السيارات الفارهة المنخطفة بلا توقف.

يمرّ رجل متدثّر بطنٍّ من الملابس. يحيّي، نردّ، فيجفل إذْ يسمع بين الأصوات صوتَ امرأة، يضحك أفرادُ الدورية، أتعهّد بأن لا أكشف عورةَ الدورية بعد.

«اسمعوا.. هل تظنون أن وضعَنا هذا جادٌّ وحقيقي؟ هل يمكن أن نتعرّض مثلاً لوضع قتالي؟. ماذا لو فوجئنا هذه اللحظة بإنزالٍ إسرائيلي؟ سيارة بريئة تقف على ناحية الطريق، وتجتاحنا مجموعة كوماندوس»؟

تلامس الأصابعُ مفاتيحَ الأمان، وتشخص الأبصارُ في الفراغ. ننسى النيرانَ والريحَ القارسة ونشوةَ امتشاق السلاح ونبدأ ليلة حراستنا. مدخلُ المخيّم هدفنا. لا شأن لنا بالشارع ولا بمن يمرّ به، أو يقف عنده، لا نسأل عن هويات ولا نُفتش مقتنيات. في الواقع: «الصف الأول مات»...

نتوزع: اثنيْن في كل اتجاه من اتجاهَي الشارع العامّ، وواحداً عند مدخل المخيّم.

- «اسمع، سأحمل البندقية في كفّي، هكذا، إنّ حملها مدلاّةً من الكتف، يذكّرني بالملصقات».

- «ملصقات الشهداء، تعنين؟»

- «بلْ ملصقات الإعلام».

- ولكنّ حمل البندقية في الكف قد يعني درجةً من درجات الاستنفار، فيظنّ من يراك أنك متأهبة لإطلاق النار».

«لطالما أحببتُ أن أسأل: هل تحب السلاح؟ أعني تحبه»؟ كيف يجعلك تشعر؟ وهل هذا الشعور يخصّ وظيفة السلاح أم يخصّ وظائف جسدك ونفسك وروحك؟ وهل تظن أنك قادر بالفعل على استخدامه، بليونة وسهولة؟ أن تهدّد به وتطلقه بالفعل؟ هل تعتقد أنك إذا لم تستخدم السلاح أو توح باستخدامه فستوصف بأنك جبان؟ وماَ الجبن؟ وما الشجاعة باعتقادك؟ وبالأخصّ، بالأخصّ كنت أريد أن أسأل: هل يعوِّضك السلاحُ عن مفقود لديك في الهمّة؟ وأي نوع من الهمّة يعوِّضه السلاح حيازةً أو استخداماً؟»

كان السلاح حلماً رومانسياً مثيراً، أظنّ أنّ أبناء جيلنا حلموا بالسلاح بقدر ما حلموا بالحب، وكان المقاتل مُلهَماً والشهيدُ قدّيساً.

كنت أتطلع إلى البنادق التي يتركها المقاتلون متكئةً على الجدران.. ألمس حديدها على عجل فأُحسّ بصدري يتّسع، وبجسدي يخفّ ويُحلّق. وكنت حين أسمع طقطقة السلاح وهو يُمتَشَقُ أتوثّبُ وتغمرني حيويةٌ فائقة.

أولَ مرة أمسكتُ بها البندقية لأفككها، أحسستُ بثقلها غير المتناسب مع خفّةٍ افترضها لها خيالي، تناسب خفةَ جسدي وأثيريّتَهُ حين لامستها.

ورحت أتعجّل لحظةَ إطلاق النار، لكنني أُصبت بخيبة أمل حاسمة. فقد اكتشفت أنّ هناك خللاً مريحاً في إيقاع فعل البندقية. فضغطة الإصبع على الزناد هي من الطراوة والسهولة بحيث يصعب توقُّعُ نتائجها: القتل. والصوت الذي يصدر عن الإطلاق يَصمّ سمعَ المُطلِق، وكان في تقديري دائماً أنه يجب أن يصمّ سمع العدو! وأمّا الهدف – الذي هو إنسانٌ تحديداً – فبإمكان أيِّ مستخدم للسلاح أن يصيبه، دون أن يعني ذلك مَهَارةً استثنائية أو شجاعةً أو تحدّياً.

على أية حال، فقد اكتشفتُ فيما بعد أنني أقارن بين المبارزة بالسيف والقتل بالسلاح الناري. وأنا لم أحب قطّ السلاحَ الناري.

كنا نتدرّب على «التَّنْشين» بالبندقية –أن نطلق «في عينه» كما كان يقال مزاحاً آنذاك. فمرّ أحدُ الرفاق وأوصانا وهو يكمل سيره: «كونوا حريصين. ففي هذا الاتجاه توجدُ قرى!»

لم تبرح هذه العبارةُ ذاكرتي. ذلك أنّ بإمكان أي إهمال أو خطأ أن يقتل إنساناً من على بعد شاسع، دون أن يلتقي القاتلُ بالقتيل، بل دون أن يعرفه، أو يعرف أنه موجود على هذا الكوكب.

وظل السلاح، بالنسبة لي، شيئاً أو وسيلة أو أداةً.. أو.. إلخ منفصلاً وغريباً.. بل وفي أحيان كثيرة مزعجاً، كحشوةِ الضرس المؤقّتة، وكجسرِ تقويم الأسنان، أو كالعكّازات. وقد أمضيتُ زمناً طويلاً قبل أن أتأكد أنني لا يمكن أن أقتل إلاّ غريزياً، وأنني لا يمكن أن أُوعِزَ بالقتل أبداً.

نعود لنتجمع حول أواخر نار حراستنا، وإبريقِ شاي أسود جاء به الجيران. تئزّ النار، مطرٌ من جديد، لا نكاد نحسّ به حتى يطفئ نارَنا وينقعنا، نتوزّع على جانبيْ مدخل المخيّم، تحت ملاذاتٍ مرتجلة. تبرد كأسُ الشاي في كفّي المرتعشة وتروح أسناني تصطك: «أف.. أكلُّ هذا من البرد؟» يسألني جيم، فأردّ وأنا أدّعي المبالغة في الارتجاف: «لا تأبه للأمر، سأظلُّ أرتجف حتى يأتي الصيف. هكذا أنا، البردُ الدُّ أعدائي، والشتاء أحبُّ أصدقائي».

تشحب السماء ولا ينقطع المطر. نولي ظهورَنا لمدخل المخيم. إنه الآن، في عهدة الفجر. ونعود، شاعرين بالإحباط: «أهذا هو كل شيء؟»

أصل إلى بيت صديقتي، أفتح البابَ الصفيحيَّ المدعَّمَ بالخشب، أُغلقه ورائي، أدخلُ غرفةَ النوم، صديقتي تنام في السرير العريض، أمها تنام في السرير الضيّق، وعلى الأرض أوانٍ كثيرة وُضعتْ على عجل لتلقّي ماءَ المطر الذي يدلف من ثقوب السقف الصفيحي، علب حليب، قِدر كبيرة، إناء ماء، طشت صغير، وقطرات المطر تعزف إيقاعات مختلفةً وتؤلف مع صوت المطر على السطح الصفيحي عزفاً موحشاً يَخِزُ العظامَ ويُقَشْعِرُ البدنَ، الغرفة مثلجة، شديدة الرطوبة، يخترقها الفجرُ الشاحب من ثقوبِ السقف وشقوقِ الشبّاك الصغير الوحيدة، فيضيء كآبةً بلا أمل.

أضَع نفسي في السرير، يلسعني الفراشُ الرطب، أسحب الغطاء محاذرةً إيقاظَ صديقتي. لكنّ تياراً مثلجاً يواصل وخز عظامي ومفاصلي. أكوّر جسدي، لكنّه كان قد فقد كل دفئه. أنتفض مرتعشةً وتصطك أسناني. تغمغم صديقتي: «أفّ.. أكل هذا من البرد؟» أغتنم فرصة صحوها فأبتهل إليها: «دخيلك! أعْطيني مكانك، وخذي مكاني!».

ترى، أيّ سقف من هذه السقوف الذائبة هو الذي عزف لي مع المطر تنويمة الفجر، في ذلك اليوم البعيد؟ أيّ باب.. أيّة جدران.. أيّ زقاق، أيّ شارع.. أيّ مدخل؟!

***

ثقبٌ صغير. صدع ضئيل تنفلت منه الروح. ما أشدّ ما أتخيّل انفلاتها مَرِحاً وسعيداً ومنبهراً. وإلاّ فكيف نفهم سرَّ اليسر الذي تنساب فيه من أسر الجسد؟ هكذا: وخزة ليس إلاّ. شهقة ليس غير. دهشة صغيرة لا تكتمل، فينقصف الإنسانُ مثلَ غصنٍ طريّ.

يكون جسداً حاراً، وأصابعَ حسّاسة، وعيوناً ذات لغة، وصوتاً ذا

سحر. وفي ثانية، ثانيةٍ واحدة، يأتيه ظرْفٌ ساخنٌ، عن قصد أو عن غير قصد، يثقب له دماغَه، أو قلبَه، أو رئتيْه، أو كبدَه فينطرح على الأرض كالخروف، يرفس بضعَ رفسات قد لا يحسّها في الغالب فيسيل منه دمٌ بحجم قِدرٍ متوسطة يتجمع قربه مثلَ بحيرة صغيرة. ثم يخمد فلا يعود قادراً حتى على كشّ ذبابة تتجرأ وتحطّ على وجهه المترف الممتنع. والذبابة تأتي بالذباب، فيحطّ عليه موجاتٍ إثرَ موجاتٍ تتلمظ بالدم الساخن الطريّ. وقد يتشممه كلبٌ على حذر، وحين لا يجد دفاعاً يتجرأ فيلعق له جرحه، مفتتحاً وليمةَ الضواري.

كلهم يتشابهون في البداية: شحوباً ودهشةً، ارتياحَ نوم مرهق، وذبولاً. وإذا تُركوا يوميْن أو ثلاثة فإنّهم يتصلّبون. وإذ تنتفخ الجثثُ داخل ملابس الموتى تبدو في استدارتها ذاتِ الصلابةِ الحجرية، وكأنها تماثيلُ لنحّاتٍ ذي أسلوب.

***

■ توقفتْ سيارةٌ ذاتُ حوض خلفي. نزل السائق وأشار إلينا، ثم إلى الحوض الخلفي: «هل هذا منكم؟»

كان الشاب الصغير يرقد على أرض الحوض الخلفي للسيارة، بثيابه العسكرية، نحيلاً برشاقة، شاحباً كما لو كان قد أرهقه صومٌ، هادئ القسمات بتقطيبة ناعمة كما لو أنّه قد نام على زعلٍ ودلال. كان يرقد هناك غير ذي حَوْل، يُدار به على المقرّات والمكاتب، تتجمّع حوله العيونُ وترتدّ النظرات.

سيدفنونه في نهاية المطاف. غير أنّ قبره لن يُعرَف. وسوف يحلم أهله طويلاً بأنّه أسير لدى جهة ما ثم يُطلق عليه فيما بعد لقبٌ تفخيمي غامض: «مفقود». لكنّه سرعان ما يُنسى بعد أن يتليّف في قلب من القلوب ألماً ميّتاً ولوعةً قديمة.

***

■ بعد لحظات من سماعنا صوتَ الانفجار، فاحتْ في المكان «زفرةٌ» مُغثية: دم طازج، ودخل أناسٌ مضطربون يدفعون طفليْن شقيقين بدينين رائعَي الجمال. كانا يلهثان مبهوريْن وأكفُّهما تشرشر دماً، وخيطان رفيعان من الدم يسيلان من أنفيهما. كانا مسروقيْن بما تفجّر في أحشائهما، يدوران بعيونهما في الوجوه ويسعلان المزيدَ من الدم. لفّ الطبيبُ أكفّهما بأكوام من القطن وأرسلهما على الفور إلى المستشفى. رحلوا. قال الطبيب: «إنهما ميّتان.. هذه بقايا الروح!» فانكفأنا نمسح الدمَ الطازج، ونهيِّئ نقطةَ الإسعاف لجثثٍ جديدة تسعى بها إلينا بقايا الروح.

***

■ رقدت الصبيّةُ - الجثّةُ على طاولة الطعام وقد ألبستْها أمُّها فستاناً أبيض وراحت تزوّقها بحميّة مجنونة، تخطط لها حاجبيْها وتصبغ وجنتيْها، وتكحّل جفنيْها المتصلّبين، وتشدُّ حنكها لتصبغ شفتها السفلى، فترتد الشفة على الأسنان المصطلّة، فتروح الأم تواصل الشدّ لتُرينا بقايا الكعك بين قواطع الفتاة. كانت تأكل كعكاً وتزهق، فكرّتْ في أن تخادع القنّاص قليلاً فتنظر إلى الشارع. شقّت النافذة ببطءٍ شقّاً نحيلاً، كان كافياً بالنسبة لقنّاصٍ ماهر اعتاد أن يقبض أجراً من الدرجة الأولى، أجرَ الرأس القتيل.

■ أومأت الجثّةُ المتورمةُ بإصبعٍ واحدة إيماءة كرفيف الجَفْن. قال: كنت أنحدر إلى النوم بقوّة قاهرة. وكنت أريد، قبل أن أغرق فيه، أن أُنبّه أحداً ما إلى أنني حيّ فلا يدفنوني، طرتُ فرحاً إذ لمحتُ بين المتفرجين على الجثث عمّي وإخواني. تطلّعوا فيّ، فحدّقتُ فيهم بقوة، وخيّل إلي أنّ دموعي سالتْ حناناً، إلاّ أن وجهي بدا لهم غيرَ مألوف، فتركوني. فقلت: «أنا إذن ميْت».. أصغيت إلى جسدي: كنتُ أتنفّس. قلت لعلّني مغطىً بأجساد أو أشياء. فلم يلحظوا أنفاسي، حتى وإن كانت واهيةً. فجعلتُ أصرخ. لكنّ أحداً ممن كانوا يتفحّصون الجثث لم يسمعني. حاولتُ الحركة من جديد، إلاّ أن عينيَّ صارتا تنغلقان، فاجتاحني فزعٌ أصمّ. ورُحتُ أدفعُ جسدي بأكمله لكي يقول إنّه حي، فما استطعتُ - كما فهمتُ فيما بعد - إلاّ أنْ أحرّك طرفَ لساني، وصادف أنْ لاحظه أحدُهُمْ فصاح: «هذا حيّ!!» فنمتُ على الفور.

***

■ لم أكن أتخيّل أنّني سأعيش لأرى - في يوم من الأيام - هذا الكمّ من الجثث. صفوف ممتدة بلا نهاية.. وأية رائحة!..

رحنا نشدّ مناديلنا على أنوفنا. وإذْ نختنق، نشهق النفسَ من بين نسيج القماش فيأتي ساخناً معجوناً بالعفن. نُبعد المناديلَ فنغرق في موجة من العفونة التي تترسب على جدار الحلق طعماً منفراً كأنه انتهاك، وجعلنا ندور بين الجثث المهترئة، نكشف عن وجوهها، لنرى إنْ كانت لواحدٍ من أحبّتنا المفقودين. وحين عجز أكثرنا عن التعرّف على من فقدنا، جعلنا نبتعد عن سرب الموت العتيق لنُفرغ عصارات أحشائنا بعيداً عنهم، وندّعي بأنّ أحبّتنا لا يمكن أن يكونوا بعضاً من هؤلاء.

***

■ بسطتُ ملامحَ وجهي قَسْراً، وتصرفتُ كما لو أنّ كلّ شيء كان على ما يرام في تلك الغرفة الصغيرة الأنيقة في مستشفى الجامعة الأميركية. غير أني كنت بحاجة إلى سماحة الأنبياء لكي أتمكّن من تجاهل تلك الرائحة القاتلة المنبعثة من أمعاء رفيقنا التي

فـجّرها له قنّاصٌ برصاص «الدمدم»، كان يبدو حيّاً جداً بذلك التحامل الخرافي على النفس، يحيط به الأصدقاءُ والصديقات. وكلهم - كما افترضت - كانوا يحاولون الادّعاءَ بأنهم لا يشمّون إلاّ رائحة الزهور التي ضاعفتْ من نفاذ رائحة البراز المكشوف وزادتها بشاعة.

جاء الطبيب، قال: «رجاءً، اتركونا دقيقتين مع المريض» فانسحبنا على مهل شديد لكي لا نبدو وكأنّنا نفرُّ من بئر البراز ذاك. وعندما صرنا في الخارج، هربتْ عيونُنا وتحاشيْنا الإسراعَ في استنشاق الهواء، وإن ظلّتْ أنوفُنا - في الواقع - مبطّنةً بعفونة، خُيِّل إلينا أنها لن تزول إلاّ بالكَشْط أو الاستئصال.

سألتُ «فاء»: أيّة جراحةٍ سيجرونها له لترتق هذا «التمزّق؟» فنظر إليَّ مدهوشاً، وبان عليه حَرَجٌ شديد. قال: أنت إذن لا تعرفين..» ثم استدار باحثاً عن مساعدة - كما يبدو. وحين تأكد أنّ عليه أن يقول «ذلك» دون عون- قال وهو يهرب بعينيه: «في الحقيقة، الرصاص أُطلق على ....» وأشار بأصابعه إشاراتٍ مبهمة. ثم احتار كيف يشرح لي. وقال أخيراً: «لقد استأصلوا له... كل شيء» وأشار بكفّيْه وهو يقاربهما فيجمعهما بإشارة جمع الزبدة وانتشالها من اللبن. وحين شعر أنّه قد تخلّص من الحرج، قال بسرعة: «هل رأيتِ الفتاة السمراءَ التي تجلس عند رأسه؟ إنها خطيبته، لبنانية من الجنوب».

***

■ ويبدو أنّ إطلاق النّار بين الفخذين ليس لغةً عابرة في قاموس الرب. بل هي لغة تمتدّ من الانتقاء المفعم بالمزاح الأسود لدى قنّاص يظلّ مجهولاً، إلى الانتقام الشرس من مهاجم لا يثير التمنعُ لديه غير شهوة الدم.

■ لا يستطيع أحدٌ أن يروي حقيقة ما جرى، سوى القتلة الذين خرجوا بغنيمة الحياة. وأما أولئك الذين أُتيح لهم أن يستكشفوا آثار المذبحة، فقد وجدوا في ذلك البيت الذي يشبه كلَّ البيوت في المخيم، وجدوا الزوج راقداً على جنبه مغطّياً حوضاً من الزهور بجسدِه ودمه، وقد تدلّت أغصانُ اللبلاب من الحوض العلوي وراحت تداعب عنقه، كانتْ فردةُ حذائه بعيدةً عن مرقده، لا بدّ أنه تعثّر متراجعاً وهو يفاجَأ بالقتلة يقتحمون باب منزله ويعالجونه بتمزيق خاصرته.

وأما المرأة، فقد مُزّق ثوبها وكُشف عن ساقيها، ولكنها قاومتْ إنزال سروالها بشراسة كما يبدو ولا بد أنّ مهاجمَها كان يحتقرها، وهو ما جعل مقاومتها فوقَ ما تحتمله كرامته فتحولُ من مراودتها عن نفسها إلى قتلها وأفرغ رصاصَه بين فخذيها.

وعلى الجدار الإسمنتي العاري، كان الشهيدُ ابنُ السادسة عشرة مطبوعاً على ملصق، يبتسم كملاك يشهد تتويج ملك الأزل على عرش السلام السرمدي. وينظر إلى أفق نوراني بعيداً عن الأرض التي تتخثّر عليها دماءُ رحم أمّه المتفجر، ويتسلّل اللبلابُ من طينها ليلتفّ على عنق أبيه المتصلّب.

***

أووو.. لعل ذلك قد حدث في حرب أخرى.. قبل هذه، أو بعدها وربما خلالها.. أم لعلّ ذلك حدث في حروب متعدّدة هي أغصانُ حرب حياتنا، التي وجدناها ناشبة، حتى قبل أن نتعلم فكّ الخط وقراءة: «دار... داران.. دُور».

كنّا صغاراً جداً، حين اكتشفنا لعبتنا الجديدة: نتجمع حول ساقية حديقة الدار، نملأها بالماء، ونصنع من أوراق الأكياس والدفاتر زوارقَ نحمِّلُها بالرزّ والسكر ونُطلقها في ماء الساقية هاتفين بها: اذهبي إلى فلسطين. وما كنا ندري ما فلسطين، ولماذا هي بأمسّ الحاجة إلى عوننا وحبنا. غير أننا وجدنا في تاريخنا فسحةً من الوقت لنكبر وننطلق إليها في زوارق حماسنا، ولننف أعمارَنا، على أعتابها العصيّة، دموعاً وآلاماً وجثثاً طرية وأخرى متفسخةً.. فتشيخ -إذ لا نموت - قبل أن ندرك الشباب، ونعمِّر أبنما حللنا الجدرانَ والمقابر(...).

***

كان الجرف الحاد يترجرج تحت أقدامنا، ولم يكن لدينا ما نتشبث به إلاّ أكفّ بعضنا، تحت سيل عارم من النار والدمار.

صدرتْ أولى الإشارات -التي اعتُبِرَتْ آنذاك إشاعات - إلى احتمال انسحاب المقاومة الفلسطينية من بيروت، بعد أسبوعين تقريباً من بدء الغزو. وكان الشهر الأول قد مرّ هيّناً، قياساً بالشهر الذي تلاه؛ فقد كانت هناك مياه وكهرباء، على الرغم من التقنين، وكانت هناك بضائع في الأسواق. وكانت اسرائيل تضغط، قصف دائم، تفجيرات، إلقاء منشورات تحثّ على مغادرة بيروت.

وواضح أن الأمر لم يعد يتعلق بمغادرة المقاومة، بل بمواقع تفاوضية: عضّ أصابع.

وكنّا سنتعايش مع الوضع. أظن أننا كنا سنستطيع العيش طويلاً تحت ذلك الظرف. فقد عشنا حرب السنتين على أية حال. في الواقع كنّا ندهش بعض الشيء ونحن نرى أنفسنا من على شاشة التلفزيون، والأقمار الصناعية تعرض ما يجري لبيروت. أهذا ما يحدث لنا؟!.. يا للفظاعة! ونضحك محاولين لفظ الرعب الذي تبثّهُ الصور الفيلمية في نفوسنا، ونتلهى

بلعب الورق والشطرنج واختراع الأطباق المتضائِلةِ الإمكاناتِ يوماً بعد يوم. وإذ نزهق، نذهب فنتغدى في أحد مطاعم الحمراء، غداءً ينقصه كل شيء، ثم نفكر: لماذا لا نذهب إلى السينما؟

أظن أنها كانت صالة الستراند.. لا أتذكر جيداً، إلاّ أنّها كانت صالة درجة أولى في الحمراء. محاولة عبثيّة لادّعاء المستحيل. كانت الصالة الأنيقة الفارهة تنفث رائحة عفونة ورطوبة خانقة، والمقاعد قد نُبشتْ وخُلِّعت - فالزبائن كما يبدو كانوا يرتادون السينما متخذين منها ملجأً مؤقّتاً، ولعلهم يضجرون في الظلام فينفّسون عن ضجرهم. كان الفيلم سخيفاً ومهترئاً: حدث فريد في تاريخ قاعات العرض السينمائية البيروتية، وكان الزبائن القلائل يقضمون المكسّرات ويرفعون أرجلهم على ظهور المقاعد ويتسامرون بأصوات مرتفعة.. ولعلّهم لم يكونوا يجرؤون على ارتياد هذه القاعات، أيام كانت بيروت هي بيروت.

أمرٌ واحد لم ينلْ منه ذلك الظرف الوحشي: الإعلام. فالاذاعات مفتوحة على الأحداث مباشرة... ومع كل صباح كانت الصحف تتنافس في تقديم ما يجري. وفي المساء نجلس أمام التلفزيون كما نجلس أمام المرآة لنتفرج على أنفسنا.

نشاهد المدينة على الشاشة: عمارات مرصوفة ومتتابعة، تغير الطائرات فلا نستطيع أن نخمّن موقع القصف، إلاّ أن واحدة من بين البنايات تشهق، تنتفخ من وسطها، ثم تزفر، فتنخسف من موضع إصابتها كأنما تنحني على جرح، أو تقع على ركبتيها فتحذف من طابورها. ويتخيّل كل منّا: ماذا لو يحدث -الآن- لبنايتنا ما حدث لهذه؟

كان يمكن أن نتعايش مع كل تلك القسوة، وكل ذلك الخطر.

في عتمة المساءات - حين لا تكون الكهرباء من حصّتنا- نجلس على الشرفات، نتفرّج على شبكة الموت وهي تنسج خيوطها النارية حولنا، في الظلمة يجري «تظهير» لتفاصيل تلك الشبكة - التي كان نوّلها يدور على مدار الساعة - فتكون كاننا نعيد شريطاً سجّلناه نهاراً لنتفرّج عليه ليلاً: ألعاب نارية، بين جبل وجبل - بين الجبل وبيروت، من بيروت إلى الجبال، من البحر إلى كل من بيروت والجبل، من بيروت إلى البحر، من البحر إلى البحر، من الأرض إلى الفضاء، من الفضاء إلى الأرض، وسط ركام هائل من التخريمات الدقيقة لرصاص البنادق، الذي قد يبدو من وجهة نظر منطقية - عبثاً لا جدال حوله - إلاّ أنه لا غنى عنه من أجل اكتمال تلك الشبكة الرهيبة التي نستكين تحت قُبّتها.. ننتظر.

كانت أقلُّ الأشياء تسعدنا وتُعزِّز صبرنا. بضع ساعات من الماء والكهرباء: نستنفدها حتى آخر لحظة. نغسل، نكوي، نشطف الأرض، ننظف الحمامات، نتسابق مع الصنابير، نملأ كل الأوعية ما بين القنينة والبانيو. وأخيراً نتحمّم، فنغدو، نحن وأشياؤنا، طازجين مثل فاكهة قُطفتْ للتو. وخلال ذلك لا تعني لنا أصوات الغارات والانفجارات واهتزاز الأرض وتصدّع الفضاء، أكثر من مؤثّرات صوتية منفصلة.

إلاّ أن الوضع تغيّر في النصف الثاني من فترة الحصار التي امتدت أكثرَ قليلاً من ثمانين يوماً. فمنذ منتصف تموز تقريباً بدأت سلسلة الأيام التي صرنا نطلق عليها صفة: «الأسوأ».

فبعد كل أربعة أيام أو خمسة يأتي يوم نصفه بأنه الأسوأ. كانت هناك خشية من أنّ استمرار وتيرة الهجوم - على الرغم من الحدد القصوى للوحشية التي استُخدمت - يمكن أن تُستوعب، رغم ذلك. ومن ثم فقد يتحوّل الوضعُ إلى ما يشبه حرب الاستنزاف التي قد تخلق قوانينها وتوازناتها وترقد على واقع جديد غير محسوم.

لم يعد هناك ماء. وملّ الناس من الانتظار ومن اختبار الحنفيات وخزانات المياه الأرضية التي جفّت وصارت ملاعب للصغار، يتخذونها متاريس ومخابئ. ويواصلون الطرقَ عليها - إذ يعجبهم رنين خوائها. وصارت الأمم المتحدة تتخّذ قرارات من أجل إعادة ضخّ المياه إلى بيروت الغربية، دون جدوى. ولم تعد هناك كهرباء. وكل محاولة لربط المغذيات كانت تقع تحت تهديد القنّاصين.

واشتدّ القصف، ولم تعد الطائرات تغادر سماء بيروت. ودخلت أنواع جديدة من أسلحة التدمير، وكانت القذائف والصواريخ تُصَبُّ من الجو، ومن البحر ومن الأرض كانت تنبثق العبوّاتُ الناسفة المبثوثة بين البنايات.

وفي بدايات التصعيد، جاءت أيامٌ سجّلتْ فيها الأرقامُ معدلات قياسية مضحكة: ثلاثون قذيفة في الدقيقة! يعني قذيفة مع كل ثاني أو ثالث نبضة قلب!!.

ولكن مع مطلع شهر آب، اشتدتْ قبضةُ التدمير، وسُجّلتْ إحصاءاتٌ مذهلة جديدة، معدلات موجعة: قذيفتان أو ثلاث في الثانية!! كنا نضحك ضحكاً مرّاً أسود ونحن نقسّم عَدَدَ القذائف على عدد سكان بيروت الغربية: ثلاثة قذائف حصة الفرد في اليوم، أربع أو أكثر إذا ما اصطادت قذيفةٌ واحدةٌ مئاتِ الضحايا. وإذ نضجر من الازعاج المتواصل لهطول القذائف، نحاول أن ننام القيلولة في الظلال المنقوعة في

الحرّ والرطوبة. وحين نعجز، نندفع إلى الشوارع، نتجمّل من أجل القذائف التي قد تلاقينا في مشوارنا. نخاصر الخطر ونندفع وراء الموت: نشتري ثياباً، نتزيّن، نتسلّل إلى المناطق المحروقة، نختلس النظرات إلى شرفاتنا المهجورة، نركض أمام الخطر، أو وراءه، تحت الشهيق الضاري للطائرات المغيرة دون توقف. يتأصّل عطشُنا ويعتق: نجلس على مقهىً، نطلب قهوة، ونحن إنما نحلم بكأس ماء بارد، تأتي القهوة، مع كأس ماء فاتر: «معذرة، الماء البارد نفد، لا وقود لتشغيل الموتورات كل الوقت». نتقصّى آثار المشروبات المثلّجة فنجدها عند مدخل الجامعة الأميركية. نشتري علبَ البيبسي، مثلّجة كأنّ الزمان هو ذاك الزمان. نبكي من فرط برودتها ونروح نمرّغ وجوهَنا وأذرعنا بجدرانها الناضحة، ثم نبدأ باحتفالية مُفخّمة بارتشاف السائل الثخين، من فرط تثليجه. قال: «مستحيل» لا أحتمل وجود هذه النعمة بين يدي، فأرتشفها، هكذا، كأنني زاهد فيها، سأشربها نفساً واحداً». ويرفع العلبة ويصبّ السائل الحادّ في بلعومه وسط تشجيع العابرين وصخبهم، تنتهي العلبة فيكون وجهُه قد احتقن ودمعتْ عيناه فاكتست ملامحُه هيئةَ الافتراس - «الآن أعطوني علبة لأرتشف!».

***

كانت موتورات الميسورين وأصحابِ المطاعم قد أوجدت لها لغة في حوار الحرب منذ الانقطاع النهائي للكهرباء. كانت أصوات القذائف تزعجنا، وترعب معظمنا. إلاّ أن أصوات الموتورات صارت تربكنا، فاكتشفنا أننا «نريد» سماعَ أصوات الانفجارات والغارات لكي يكون الوضع سليماً، فهناك «علاقة» بيننا وبين الأصوات المعادية، وبدون سماعها جيداً فإننا نعجز عن أن نكون الطرف الآخر في العلاقة.

غير أن شحّ الوقود، أجهز شيئاً فشيئاً على نشاط الموتورات، وصار الليل حين يأتي، يسدل على بيروت غطاءً من القطيفة السوداء، فلا ينوش النظر طرف إصبع صاحبه. وصرنا نملّ أضواء الشموع الشحيحة فنذهب إلى النوم مبكّرين. نغفو في السخونة والرطوبة ما بين قذيفة وقذيفة، وحين نتعب، ننقل القذائف إلى أحلامنا، فتتواطأ معنا الأحلام والقذائف معاً، فننام.. نومَ المهزومين (...).

***

اختلج آب اختلاجته العظمى.

كان الفضاء الزائف قد ترنّح الآن، وابتدأ التداعي. متاهة من حرٍّ وغبار، دخان وعتمة. والمصائر المؤجلة قسراً تضطرب وتتهاوى كأشباح مبهورة بضوء مفاجئ.

تُرفع مظلة النار ليبدأ الرحيل.

ينفجر الأمان الزائف نهراً أسود يجرف الناسَ كلاً إلى مصيدته وبيت مصيره.

قد يكون مصيرُك شرقاً، فأنت لا تُصاد بحراً ولا مُخيّماً.. تذهب منجذباً إلى مصيدتك كالسفينة إلى جبل المغناطيس، فتنحلُّ إلى خبر موثوق، أو إشاعة لن يتمّ التحقق منها.

وإذا كان مصيرك مُخيّماً فسوف تذرف الدموعَ في وداع الراحلين. وبعضهم سوف يغبطك على نعمة البقاء، فتزهو أنت بامتياز فريد، بينما يفور دمك في انتظار المذبحة.

وإذا كان مصيرُك بحراً، فقد تنظم أشعاراً في وداع «مدينة أخرى» تخذلها، ولكنك ستظلُّ مسروقاً بما يكفي من الانبهار حتى تصل مكاناً بعيداً، يمكنك فيه أن تصرخ، وأن تعلن نفسك ذبيحاً.

وفي البيوت العامرة، التي بُنيت حجراً حجراً، يتوه الرجالُ والنساءُ والصغارُ في طوفانٍ من المحبة القاسية. وإذ يعجزون عن الانتقاء والهجران يخرجون وقد تركوا جنّاتهم في عهدةِ مُحبّين من أجل أن يتصرّفوا بها، إذا ما بلغ اليائسُ من العودة نهايته.

وعلى الجدران يفزعُ الشهداءُ المتراكمون منذ سنوات، ويلاحقون بعيون زائغة الانجرافَ الأكبرَ الذي يترك الشوارعَ للفراغ، ويتركهم تحت سيف الانمحاء.

وفي المقابر الشاسعة، يتبادل الشهداءُ والأمهاتُ وحشةً مُزمنة، وترفٌ بين العيون شموع، وتفوح أزهار بعطر.

وإذ يُعلَنْ اليائسُ، تنهض الشموعُ لتخاصر الزهورَ النواية وأعوادَ الآس والريحان، ويرقص الجميع على طنافس من رمل أحمر، تحت ظلال دسمة خضراء معطّرة... فلا يملك الشهداءُ إذّاك إلاّ أن يضجّوا بصخب عاصفٍ، وضحكٍ مرير.